بين السيرة والرواية علاقة ملتبسة

هل يتكئ الروائيون على تجاربهم الشخصية لمزج الواقع بالخيال؟

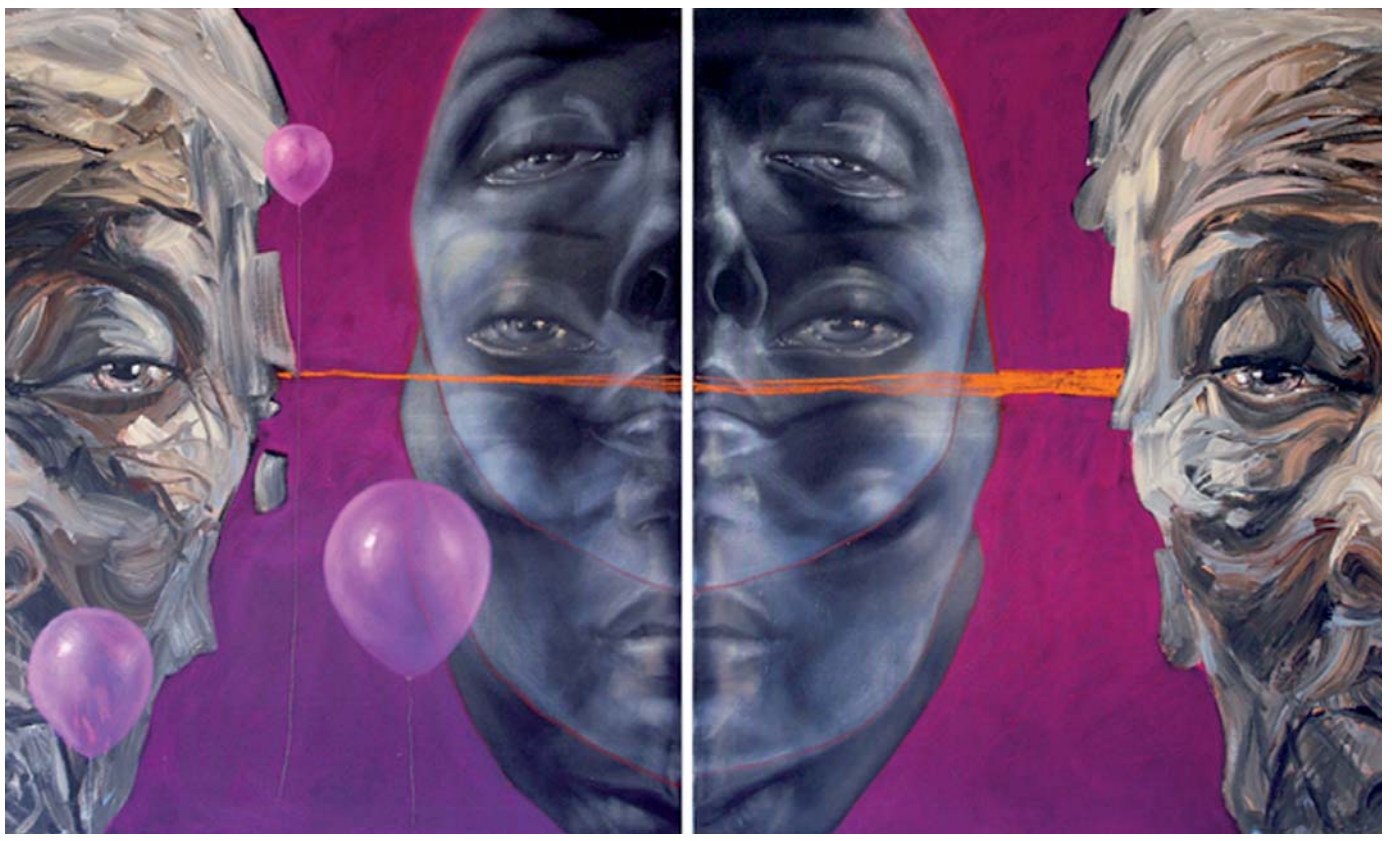

هناك فرق بين الكاتب وشخصياته (لوحة للفنانة سارة شمة)

لا ينقطع السجال بين النقاد والكتّاب، الذين كتبوا سيرهم الذاتية أو استثمروها في رواياتهم، حول العلاقة بين هذين الجنسين، وكذلك عن المصطلح الذي يُطلق على الرواية التي تسرد أحداثا حقيقية حدثت لمؤلفها في حياته الشخصية. فهناك من يؤيد اندماج السيرة بالرواية وهناك من يرفض ذلك بشدة.

عواد علي
كاتب عراقي

هل يمكن دمج السيرة الذاتية، وتحديدا تلك التي تخص الأدباء، بالرواية لإحداث مزاوجة بين الواقعي والتخييلي، أو بين الحياة التي عاشها الأديب/ الروائي، بأبعادها الفردية والاجتماعية والإنسانية، ولعبة المخيلة؟ وكيف تذوب الوقائع الحقيقية في منظومة التخيّل الروائية من خلال توظيف الإمكانات المتنوعة واللانهائية التي يقدمها كلا الجنسين السرديين؟

من المؤكد أن الإجابة على التساؤل الأول هي: نعم، يمكن دمج السيرة بالرواية، رغم التباس العلاقة بين هذين الجنسين السرديين، خاصة إذا تذكرنا أن كل رواية تتضمن بطريقة أو بأخرى شذرات أو بعض مكونات السيرة الذاتية.

الرواية والذات

في هذا الصدد تقول الروائية الفرنسية مارغريت دوراس إننا "لا نكتب شيئا خارج الذات"، ويفترض جورج ماي أن السيرة الذاتيّة والرواية شكلان يمثلان قطبين اثنين لجنس أدبي واحد، لكنه مترامي الأطراف، ويؤكد ماركين، في نهاية كتابه "عشت لأروي"، بأن سيرته يجب أن تُعدّ جزءا مهمّا من أعماله التخيّلية لأنها ليست سوى تخيّلات حول حياته.

ويتواصل السجال بين النقاد والكتّاب حول دمج السيرة بالرواية، ومن أبرز المصطلحات التي شاعت في هذا السياق مصطلحا "السيرة الروائية" و"رواية السيرة الذاتية"، وقد انحاز بعضهم إلى المصطلح الأول، وانحاز بعضهم الآخر إلى المصطلح الثاني، وقدّم كل منهما مسوغاته، على غرار ما حدث في مجال العلاقة بين الرواية والتاريخ، التي لا تزال موضع خلاف وجدل بين الروائيين والنقاد.

وقد ظهرت كتب ودراسات عديدة حول هذا الموضوع، منها مترجمة ومنها مكتوبة بأقلام نقاد وباحثين عرب، أقرّ البعض بوجود وشيجة بين السيرة والرواية، وحلل نماذج من الروايات التي اعتقد بأن أصحابها اتكأوا في كتابتها على سيَرهم الذاتية. في حين استبعد بعضهم الآخر وجود مثل هذه الوشيجة.

ويأتي كتاب "بين الرواية والسيرة في ضوء نظرية الأدب" للناقد والأكاديمي الأردني الدكتور إبراهيم خليل، الصادر حديثا عن دار أمواج للطباعة والنشر في عمّان، ليُضاف إلى الكتب التي تستبعد هذه الوشيجة.

يقول المؤلف في مقدمة الكتاب "نحن في الرواية نتعرف على عدد كبير أو قليل من الشخصيات، وهذه الشخصيات تختلف البعض منها عن بعض اختلافها عن المؤلف، ومما يبرهن على صحة هذا الرأي أن الكاتب الروائي يكتب في حياته عددا من الروايات، وفي كل رواية يخترع عددا من الشخصيات، فلو كان جديرا به أن يتكئ على حياته وتجاربه الشخصيّة، من حيث هو فرد، لوجب في هذه الحال أن يبعثر شخصيته وتجاربه في عدد من الذوات، التي لا تؤدي إلى ذات موحدة".

ينقسم الكتاب إلى قسمين، يختص الأول بالرواية، ويتناول في ثمانية فصول رواية "وداعا يا زكرين" لرشاد أبوشاور تحت عنوان "وداعا يا زكرين: التاريخ والسيرة بقناع روائي"، روايتي "حياة حصار" و"الصخرة وما تبقى" لفيصل حوراني بعنوان "بين السيرة والتاريخ والراوية"، ورواية "مفقود" لحيدر حيدر، ورواية "الجرمق" لمهند الأخرس، وهي سيرة بشروط غير روائية، ورواية "ظل الشمس" لطالب الرفاعي، وروايتين لمي بنات هما "مهرة" و"إليك"، وروايتي بثينة العيسى "خرائط التيه"، و"عروس المطر".

ويفرد المؤلف القسم الثاني من الكتاب للسيرة، متناولا في أحد عشر فصلا سير كل من الأدباء حسين البرغوثي "الضوء الأزرق"، أحمد المديني في كتبه الثلاثة "نصيبي من باريس"، و"نصيبي من الشرق"، و"فتن كاتب عربي في باريس"، أمجد ناصر "بيروت صغيرة بحجم راحة اليد"، فيصل حوراني "حنين"، محمود شقير "مرايا الغياب: يوميات الخزن والسياسة"، صلاح حزين "غسّان القلب"، فايز رشيد "الطريق إلى الوطن"، مريد البرغوثي "ولدت هناك.. ولدت هنا"، و"محطات من السيرة الذاتية" للسوداني طارق الطيب.

مادة متخيلة

لا يرى الناقد إبراهيم خليل في الآراء المنحازة للسيرة الروائية، أو لرواية السيرة الذاتية ما يكفي لإضفاء الصفة الأجناسية على السيرة، من حيث إنها رواية. فالرواية، من وجهة نظره، فن موضوعي، مستقل ببنائه، وفحواه، عن المؤلف، الذي يخترع راويا يفترض فيه أن يكون قريبا من الحوادث، والمرويّات، لصيقا بالشخوص، وبالأماكن، معاصرا للزمن الذي وقعت فيه المجريات.

ويعتقد خليل بأن ما يبرهن على صحة نفيه لاتكاء الروائي على سيرته الذاتية أنه، أي الكاتب الروائي الحقيقي لا المدّعي، أو الهاوي، يكتب في حياته عددا من الروايات، وفي كل رواية يخترع عددا من الشخصيات، فلو كان جديرا به أن يتكئ على حياته وتجاربه الشخصيّة، اتكاء مباشرا، أو غير مباشر، في الرواية، مظهرا من مظاهر الضعف، وذلك الضعف هو الذي أشاع في الرواية العربية ضربا من الهشاشة اللافتة للنظر، على الرغم من الزوابع التي تثار بقصد التهويل من شأن الروايات، ومن شأن بعض الروائيّين".

وعلى هذا الأساس يشكك المؤلف في قول بعض الروائيين إن أحداثا ووقائع من حياته تسرّبت في أعماله الروائية، أو إن حياة الكاتب الروائي مصدر دائم، ومرجعيّة لا غنى عنها، لكتاباته، فلا يبدع الكاتبُ روايته إلا ويغرف من معين ذاكرته، وتجاربه الشخصية.

> **كاتب السيرة الذاتية قد يخفي بعض ما جرى له من باب التحفظ، لكن كاتب الرواية يجب ألّا يتحفظ**

ويستشهد خليل بنماذج من الروايات العالمية التي لقيت إجماعا، أو شبه إجماع، على أنها روايات كلاسيكية جيدة، بل من الروائع، مثل "الأبله" لدستويفسكي، و"أنا كارنينا" لتولستوي، و"مدام بوفاري" لفلوبير، و"مرتفعات وذرنغ" لإميلي برونتي، وغيرها الكثير، لكن ليس "فيها قدر قلامة من سِيَر هؤلاء الكتاب" حسب اعتقاده.

ويلفت المؤلف إلى أن الحوادث والوقائع في الرواية متخيلة، ويعرف القارئ عنها ما لا يعرفه عن الشخصية في السيرة، فكاتب السيرة الذاتية قد يخفي بعض ما جرى له أو قام به، من باب التحفظ، غير أن كاتب الرواية "حريّ به ألّا يتحفظ، وربما تغلغل في سبر غور الشخصية إلى ما لا يُذكر في العادة، ولا يُعرف".

يُذكر أن الناقد إبراهيم خليل نشر حتى الآن أكثر من خمسين كتابا في نقد الشعر والقصة القصيرة والرواية والتراث، ونقد النقد، منها: "الشعر المعاصر في الأردن"، "في الأدب والنقد"، "في القصة والرواية الفلسطينية"، "تجديد الشعر العربي"، "النص الأدبي تحليله وبناؤه"، "الأسلوبية ونظرية النص"، "الضفيرة واللهب: دراسات في الشعر العربي القديم والمعاصر"، "محمود الريماوي من القصة إلى الرواية"، "جبرا إبراهيم جبرا الأديب الناقد"، تحولات النص، "أقنعة الراوي"، و"الذاكرة والمتخيل في الخطاب السردي".

الروائي ليس بطل أعماله (لوحة للفنان ساسان نصرانية)

أكبر معجم عربي يوثق 17 قرنا من لغة الضاد

الشارقة – كثيرة هي الألفاظ العربية التي لا نعرف أوّل من استعملها؟ وكيف اكتسبت معناها؟ وكيف صارت تشير إلى شيء أو إلى فعل أو دلالة؟ مثلا متى صارت مفردة مثل "جلس" بمعنى اعتدل في قعدته؟ ومن أوّل من استخدم لفظة "طبيب" من العرب؟ وكيف دخلت بعض المفردات إلى العربية من لغات أخرى عبر قرون؟ وكيف تطوّرت بعض الألفاظ عبر التاريخ، وكيف هاجرت بعض الكلمات من لغة إلى لغات أخرى.

هذا ما تتولّى مهمته المعاجم التاريخية للغات، وهذا ما ظلت تفتقر إليه اللغة العربية منذ نشوئها إلى اليوم، فعلى الرّغم من المحاولات الأولى لتنفيذ هذا المشروع الكبير منذ بدايات القرن العشرين، إلا أنه تعطل ولم يرَ النور، وعلى الرغم من وجود جهات حاولت تبنّي هذا المشروع إلا أنّ تأريخها لمفردات اللغة العربية ظل مقتصرا على 3 قرون من الزمن.

اليوم تقود إمارة الشارقة المشروع المعرفي الأكبر للأمة العربية، وتكشف عن إتمام مراحل العمل الأولى من "المعجم التاريخي للغة العربية" الذي يشرف عليه اتّحاد المجامع اللغوية والعلمية في القاهرة، بمشاركة عشرة مجامع عربية، ليكون المعجم الأول الشامل في تاريخ لغة الضاد.

بعد سنوات من العمل، تمّ خلالها البحث في قرابة 20 ألف كتاب ومصدر ووثيقة تاريخية باللغة العربية، يفتح "المعجم التاريخي للغة العربية" الباب واسعا على 17 قرنا من الزمن ليصل في توثيقه لمفردات اللغة العربية إلى نقوش وآثار يعود تاريخها إلى القرن الثالث قبل الإسلام، ويقود بذلك الباحثين إلى المصادر الأولى للغة ويكشف عبر تتبّع منهجي كيف استخدمت كل مفردة عبر العصور: قبل الإسلام، والعصر الإسلامي من 1 إلى 132 هجري، والعباسي، والدول والإمارات، والعصر الحديث.

ويكشف المعجم الذي يتولى مجمع اللغة العربية في الشارقة إدارة لجنته، عن الانتهاء من التأريخ للأحرف الأولى من اللغة العربية، ومن المقرر أن ترى المجلدات الأولى النور في نهاية العام 2020، معلنا أن المدة التقديرية للانتهاء من كامل المعجم تقدر بستة أعوام.

ويشكل المعجم إلى جانب أنه يبحث ويوثّق لمفردات اللغة العربية مكتبة إلكترونية ضخمة مكوّنة من أمّهات كتب اللغة والأدب والشعر والفلسفة والمعارف العلمية المتنوعة، تمكّن الباحثين والقرّاء بعد الانتهاء من مراحل إعداده كاملة، الوصول إلى أكثر من 40 ألف كتاب ومصدر ووثيقة يعرض بعضها إلكترونيا للمرة الأولى في تاريخ المحتوى المعرفي العربي.

ويعنى المعجم بإيضاح جملة من المعلومات الرئيسية هي "تاريخ الألفاظ العربية"؛ حيث يبحث عن تاريخ الكلمة من حيث جذرها، ويبحث عن جميع الألفاظ المشتقة منها وتقلّباتها الصوتيّة، ويتتبّع تاريخ الكلمة الواحدة ورصد المستعمل الأوّل لها منذ الجاهليّة إلى العصر الحديث، ويعمل على توضيح "تطوّر المصطلحات عبر العصور"، كما يرصدُ تاريخ دخول الكلمات الجديدة المستحدثة في اللغة المستعملة، والكلمات التي انقرضت وزالت من قاموس الاستعمال مع ذكر الأسباب المؤثرة في ذلك؛ حيث يبحث عن تطور الكلمة عبر الزمان وعلى ألسن العرب وغيرهم من المتكلمين باللسان العربي منذ الجاهلية إلى يومنا هذا.

إلى جانب ذلك يختص المعجم بالكشف عن تاريخ نشأة العلوم والفنون؛ إذ يبحث مثلا في علوم اللسان العربي وعن جميع العلوم التي نشأت تحت ظل البحوث اللغوية قديما وحديثا من نحو وصرف وفقه لغة ولسانيات وصوتيات وعلوم البلاغة والعروض وغيرها، ويرصد المصطلحات التي ولدت ونشأت وترعرعت في رحاب هذه العلوم.

وقبل ذلك يقارن بين الألفاظ في اللغة العربية وأخواتها من الساميات مثل اللغة العبرية والأكّادية والسّريانية والحبشية وغيرها، وفي هذا المجال تمّ تكليف لجنة متخصّصة من علماء الساميات برصد أوجه الشّبه والاختلاف بين الألفاظ العربية وما يقابلها في تلك اللغات، وذكر الشواهد الحية التي تدلّ على ذلك مع توثيق للمصادر والكتب التي أُخِذت منها.

حول أهمية المعجم، قال الدكتور امحمد صافي المستغانمي، أمين عام مجمع اللغة العربيّة بالشارقة "مشروع المعجم التاريخي هو حُلم الأمّة العربيّة الأكبر، ومشروعها الأعظم، وحامل ذاكرتها الجماعيّة، وإنجازه سيُحدث حركة عظيمة في ميدان المعجميّات، وسيعود بالعربيّة إلى أمجادها، ويبعث فيها الحياة من جديد، وإن كانت العربيّة لم تمت ولن تموت لارتباطها بوحي السماء".

امحمد صافي المستغانمي

> **مشروع المعجم التاريخي حلم الأمة العربيّة وحامل ذاكرتها، وإنجازه سيحرك ميدان المعجميات**

وأضاف "ليس من المبالغة القول إنه لا يوجد مشروع استقطب اهتمام اللغويين، ولفتَ انتباهَ عشّاق لغة الضاد كما لفتهم مشروع المعجم التاريخي للغة العربية؛ ذلك لأنّ عددا من اللغات العالمية قد أنجزت معجمها التاريخي خصوصا ما يتعلق باللغات المتفرّعة عن اللاتينية الأمّ مثل الفرنسية والإنجليزية ومثيلاتها، وظلّ المشروع العربي يترنح بين عوائق ضبابية التّخطيط، ومزالق ضخامة المشروع، وعوائق فداحة التّكاليف المادّية. ولا يخفى أنّ الذين أرّخوا للغاتهم مثل الإنجليز والفرنسيّين والألمان والسويديين وغيرهم، في الحقيقة أرّخوا للغاتهم التي هي حديثة المولد مقارنة باللغة العربيّة التي هي ضاربة الجذور في أعماق التّاريخ من لدن العرب العدنانيين الذين ينحدرون من أرومة إسماعيل عليه السلام إلى عصرنا الحاضر".

تجدر الإشارة إلى أنّ المنصة الرقمية التي تمّ إعدادها لهذا الغرض تتميّز بسهولة البحث، وسرعة الحصول على المعلومة واسترجاع النصوص وإظهار النتائج في سياقاتها التاريخية، إضافة إلى أنه يشتمل على قارئ آلي للنصوص المصورة، واعتماده على محلل صرفي يساعد الباحثين على الوصول إلى مبتغاهم في السياقات التاريخية المتنوعة.

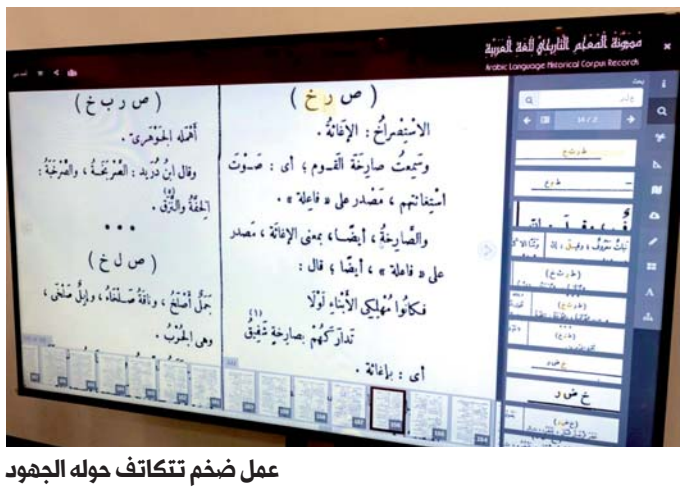

عمل ضخم تتكاتف حوله الجهود